اليهود في فرنسا

قضيّة اللوبي اليهودي في فرنسا قضيّة مثيرة، ذلك لأن هـذا الجيـب استطاع طوال عقود ماضية أن يكون حاضراً حيث لا يجب أن يغيب، بـل لقد استطاع أن يثير زوابع مصطنعة في فناجين لا ماء فيها ليوصل رسـائله الخطيرة إلى جهات ما..

ولفرنسا مع اليهود تاريخ حافل .. فلقد كان نابليون أول رجل دولـة يقترح إقامة دولة يهودية في فلسطين، كان ذلك قبل وعـد بلفـور بـ (١١٨) سنة.. لذلك لم يكن من العجيب ولا الغريب أن يصف وايزمـان نابليون بأنّه: «أوّل الصهيونيين الحديثين غير اليهود»..

ففي عام ١٧٩٩م أصدر نابليون بياناً جاء فيه: «من نـابليون القائـد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في إفريقيا وآسـيا إلى ورثـة فلسطين الشرعيين.

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذي لم تستطع قـوى الفـتح والطغيان أن تسلبه اسمه ووجوده القومي، وإن كانـت قـد سـلبته أرض الأجداد فقط.

إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين ـ وإن لم تكن لهم مواهب المتنبئين مثل إشعيا Isaiah ويوئيل Joel ـ قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم

الرفيع من دمار وشيك لمملكتهم ووطنهم: أدركوا أن عتقاء الله سيعودون لصهيون وهم يغنون، وسيولد الابتهاج بتملكهم لإرثهم دون إزعاج فرحا دائماً في نفوسهم (إشعياء Isaiah ٣٥: ١٠).

انهضوا إذن بسرور أيها المبعدون. إن حرباً لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، تخوضها أمة دفاعاً عن نفسها بعد أن اعتبر أعداؤها أرضها، التي توارثوها عن الأجداد، غنيمة ينبغي أن تقسم بينهم حسب أهوائهم. وبجرة قلم من مجلس الوزراء تقوم للثأر للعار الذي لحق بها وبالأمم الأخرى البعيدة. ولقد نسي ذلك العار تحت قيد العبودية والخزي الذي أصابكم منذ ألفي عام. ولئن كان الوقت والظروف غير ملائمة للتصريح بمطالبكم أو التعبير عنها، بل وإرغامكم على التخلي عنها، فإن فرنسا تقدم لكم إرث إسرائيل في هذا الوقت بالذات، وعلى عكس جميع التوقعات.

إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به والذي يقوده العدل ويواكبه النصر جعل القدس مقراً لقيادتي، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي لم تعد ترهب مدينة داود.

يا ورثة فلسطين الشرعيين

إن الأمة التي لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل أولئك الذين باعوا أجدادهم لجميع الشعوب (٦: ٤ يوئيل Joel) تدعوكم لا للاستيلاء على إرثكم بل لأخذ ما تم فتحه والاحتفاظ به بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء.

انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوي شرفاً لإسبرطة وروما (١٥: ١٢ Macc)، وإن معاملة العبودية التي دامت ألفي عام لم تفلح في إخمادها.

سارعوا! إن هذه هي اللحظة المناسبة ـ التي قد لا تتكرر لآلاف السنين ـ للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سلبت منكم لآلاف السنين وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم، وحقكم الطبيعي المطلق في عبادة يهوه، طبقاً لعقيدتكم، علنا وإلى الأبد (٢٠: ٤ يوئيل Joel)[1].

ولم يكن نابليون ينطلق من واقع اليهود، بقدر ما كان ينطلق من واقع فرنسا الذي يكون الصهاينة جزءً منه. فقد كانت في فرنسا آنذاك مجموعات صهيونية من المؤمنين بالعصر الألفي السّعيد، وبخاصّة بين الهجنوت في المناطق الجنوبية: «وكان ممثلهم البارز هو إسحاق دي لابيير (١٥٩٤ ـ ١٦٧٦) الذي كتب «دعوة اليهود» Rappel des Jews، ودعا إلى إحياء إسرائيل بتوطين الشّعب اليهودي في الأرض المقدّسة رغم اعتناقه النصرانيّة، وقد بعث استرحامه إلى الملوك الفرنسيين ولكن رسالته لم تنشر مطبوعة إلاّ بعد ما يقارب القرنين من الزّمان حين دعا نابليون إلى اجتماع السنهدريم اليهودي في مايو عام (١٨٠٦)، ومع ذلك بقي ذلك الكاتب عالماً ذا نفوذ، بل إنّه عُيِّن سفيراً لفرنسا في الدانمارك عام ١٦٤٤م، وهناك عالم فرنسي آخر هو فيليب جنتل دي لانجالير (١٦٥٦ ـ ١٧١٧) الذي لم يصب نجاحاً

(١) الصهيونية غير اليهودية ص ١٠٦ ــ ١٠٧ .

كسلفه.. فعندما تقدّم بخطّته من أجل توطين اليهود في فلسطين على أن يُعطي الخليفة العثماني روما بدلاً منها، ألقي القبض عليه، وقُدّم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى، وتنبّأ قسّيس فرنسي آخر وهو بيير جوريو في كتابه «L'accomplissement des propheties» [1] بإعادة تأسيس مملكة يهودية في فلسطين قبل انتهاء القرن السابع عشر»[2].

وفي كتابه «الأساطير المؤسّسة للسياسة الإسرائيلية» خصّص روجيه غارودي فصلاً كاملاً للحديث عمّا عنون له بـ«اللوبي في فرنسا» مفتتحاً إياه بما قاله الجنرال شارل ديغول نفسه وبكلّ شجاعة: «في فرنسا «لوبي» قويّ مُوال لإسرائيل، وهو يمارس تأثيره بخاصّة في أوساط الإعلام» في فرنسا استطاع اليهود أن يثيروا ويضغطوا قضايا ليبرزوا مخالبهم ويظهروا قوّتهم كرسالة موجّهة للإليزيه.. ولماتنيون. ولكلّ مراكز السلطة والتجمعات الثقافية، والسياسية والإعلاميّة..

والكلّ يذكر ولاشكّ قضيّة «كاربنتراس»..

هل هناك من يريد التذكير بها؟

لابأس سأذكر الحادثة..

في أيار من عام (١٩٩٠م) حدث نبش لمقبرة كاربنتراس اليهودية في فرنسا.. وشوّهت جثة أحد القبور المنبوشة.. وهرع اللوبي الصهيوني حسب ما كان مخطّطاً له لحلب القضيّة في إنائه.. وصرّح وزير الداخلية، بيير جوكس

(١) ترجمته بالعربية «إنجاز النبوءات».

(٢) الصهيونية غير اليهودية لريجينا الشريف ص ٦١.

قائلاً: «لا حاجة إلى تحقيق الشرطة لنعلم من هم الجناة الذين ارتكبوا هذه الجريمة العرقية النكراء» كانت كلمة الجريمة العرقية كافية لفهم المقصود..

٢٠٠,٠٠٠ متظاهر جابوا شوارع باريس، وكان العلم الإسرائيلي يرفرف على مقدمة المتظاهرين.. وقرعت أجراس نوتردام إكراماً للموقف المهيب.. وقام الحاخام الأكبر «سيتروك» ليقول: «ينبغي ألا نسمح لأحد أن يقول ما شاء، فليكن ذلك درساً للأساتذة «التعديليين» وللسياسيّين غير المسؤولين» وتوقف التحقيق بعد ذلك ولفّ الصّمت كلّ شيء.. وتهامس العارفون والمطّلعون بالفعل اليهودي الخسيس المصطنع والذي أوهم الجميع عبر القنوات أنّ جثّة «جيرمون» قد شوّهت، والحقيقة أنّ الجثة لم تشوّه، بل كان الأمر مجرّد تركيب (مونتاج) للوصول إلى الغاية المنشودة..

لقد تبيّن فيما بعد أنّ «جيرمين» هذا الذي نبش قبره كان مغضوباً عليه من طرف اليهود لأنّه تزوّج مسيحية، ونقلت جثته إلى قبر آخر هو قبر «إيما أولما» المغضوب عليها هي أيضاً لأنها تزوجت كاثوليكياً.

وتاريخ اليهود في فرنسا (بلاد الغال) يرجع حسب الكثيرين إلى عام ٢١٢م حين استوطنوها مع القوات الرومانية غير أن التروح الفعلي لليهود نحو فرنسا في العصر الحديث كان بعد الحرب العالمية الثانية، حيث اقتلعت تجمعات يهودية كثيرة من طرف النازيين، وفي الستينيات ومع استقلال العديد من الدول العربية هاجرت أعداد أخرى كبيرة من اليهود من الجزائر، مصر، المغرب، وتونس. وقد بلغ عدد اليهود في فرنسا عام ١٩٦٧ نحو ٥٣٥ ألفاً. وفي باريس يعيش اليوم نصف عدد اليهود الفرنسيين. ويرى عبد الوهاب المسيري في موسوعته (اليهود واليهودية والصهيونية) أن عدد يهود

فرنسا في أوائل التسعينيات (١٩٩٢) بلغ ٥٣٠ ألفاً أي ٤% من يهود العالم، أي أقل من ١% من سكان فرنسا البالغ عددهم (٥٧٣٧٩٠٠٠) بينما يرى روجيه غارودي أنهم يشكلون نسبة ٢% من مجموع الشعب الفرنسي.

ومنذ عام ١٩٤٨م حجز أقل من ستين ألف يهودي أماكن للسفر من فرنسا إلى إسرائيل، عاد منهم بعد ذلك خمسة وعشرون ألفاً، ومعظم يهود فرنسا من اتباع الصهيونية التوطينية التي تهدف إلى توطين اليهود حيث يكتفي المؤمن بها بإحداث أصوات تأييد صارمة وعالية حيث يكون في أي بلد من العالم، كما يلتزم بإرسال دعم مالي للدولة الصهيونية في فلسطين. ومن أهم مؤسساتهم في فرنسا:

المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في فرنسا (CRJF). والصندوق الاجتماعي اليهودي الموحّد (FSJU) وكذا «الاليانس إسرائيليت يونفرسيل»، وهي منظمة كبيرة تهتم بالتعليم وبناء المدارس وغيرها.

وبالرّجوع إلى محاكمة روجيه جارودي عن كتابه «الأساطير المؤسّسة للسياسة الإسرائيلية» يتبيّن حجم الضغط والنفوذ عند اللوبي الصهيوني، وقد استطاع هذا اللوبي بعد ذلك أن يغلق في وجه جارودي، كما يحكي نفسه، كلّ دُور النشر الفرنسية وأن يحاصره حصاراً مُرّاً..

إنّ الحديث عن «لوبي» معناه الحديث بالضرورة عن ما هو خارج اللوبي.. الحديث عن الشعب الفرنسي وما فيه من العرب والمسلمين.. ومعناه أيضاً الحديث عن الموقف الرّسمي الفرنسي..

إذ إنه من الخطأ اعتبار ما قد تقوم به مجموعة يهودية موقفاً لفرنسا شعبياً أو رسميّاً.. وعموماً ففرنسا تنطلق في نظرتها لقضية الصّراع العربي

الإسرائيلي من عدّة اعتبارات، أهمّها، أنّ باريس تصبو مع ألمانيا والاتحاد الأوروبي إلى أن تكون قطباً قوياً في وجه أمريكا، لذلك تنظر هذه الدول الأوروبية ومنها فرنسا إلى الدّعم الأمريكي لإسرائيل على أنّه خدمة ودعم لمصالح واشنطن في المنطقة، وهذا يحتّم بل ويستدعي من الأوروبيين ومنهم فرنسا أن يحافظوا على مسافة معيّنة بينهم وبين إسرائيل.. مسافة يجب أن تكون في الغالب أكبر من المسافة التي يجب أن تكون بين أوروبا والعرب..

ولئن كانت إسرائيل «مصلحة سياسية» أمريكية بحتة تحاول أن تحوّلها عبر مشروع «الشرق أوسطية» إلى «مصلحة اقتصادية»، فإنّ مصالح الأوربيين مع الدول العربية خاصة تلك التي كانت مستعمرات قديمة لهم في الشمال الإفريقي أو في المشرق.. (سورية ولبنان)، وعليه فإن المصلحة تقتضي أن لا ينظر الفرنسيون إلى إسرائيل بعيداً عن أمريكا.. وهو ما يجعل لزعماء أوروبا هامشاً أوسع في الخروج من ضغط اللوبي الصهيوني، وهو الهامش المفقود في الولايات المتحدة الأمريكية..

غير أنّ عزف اللوبي اليهودي في فرنسا يبقى غير منسجم مع عزف فرنسا ذاتها شعباً ونظاماً، وهذا لا يعني أنّ ولاء يهود فرنسا إنما هو ولاء مزدوج، لبلدهم وليهوديتهم التي تعني سياسياً إسرائيل أبداً، فهناك ولاء واحد لليهود الصهاينة، إنّه ذلك الذي أشار إليه بن جوريون حين قال: «حينما يتحدّث يهودي في أمريكا، أو في جنوب أفريقيا عن حكومتنا لإخوانه اليهود، فهو عادة يعني حكومة إسرائيل، كما ينظر الشعب اليهودي في مختلف الدول للسّفير الإسرائيلي على أنّه ممثّلهم»..

المراجـــع

آ ـ الكتب:

- الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، روجيه جارودي ت.حافظ الجمالي وصياح الجهيّم. (ط٢) تموز/يوليو ١٩٩٦. دار عطية للنشر – دمشق.
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (المجلد الرابع) لعبد الوهاب المسيري دار الشروق.
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة ١٩٤٩م) لإلياس شوفاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- يهودية أم صهيونية لعبد الوهاب زيتون دار الأصالة – بيروت – لبنان.
- العنصرية الصهيونية وكيفية مواجهتها، لخليل إبراهيم حسّونة، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان والمطابع الجماهيرية الليبية.
- الصهيونية غير اليهودية جذورها في التاريخ الغربي. تأليف: ريجينا الشريف، ترجمة أحمد عبد الله بن عبد العزيز (عالم المعرفة – الكويت، ديسمبر/كانون الأول، ١٩٨٥م).
- الفكر الإرهابي الصهيوني وممارساته العملية. يوسف علي مرار – الطابع: جمعية عمال المطابع التعاونية، عمّان – الأردن/١٩٨.
- الخلفية العنصرية للتشريعات الإسرائيلية، أنيس الخطيب، تموز ١٩٧٨م، دار القدس، بيروت – لبنان.
- مطبوعة الاتفاقية الدولية لإزالة كافة أشكال التمييز العنصري – الأمم المتحدة.
- موسوعة السياسة (ج٣)، د. عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (١٩٨٣)، بيروت – لبنان.
- من الساميين إلى العرب، الشيخ نسيب وهيبة الخازن (١٩٧٩م) منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.
- تاريخ فلسطين القديم، د.سامي سعيد الأحمد، (١٩٧٩)، مركز الدراسات الفلسطينية، جامعة بغداد.

- آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التورانيّ، فراس السواح، ١٩٩٥م، دار علاء الدين.
- كفاحي (هتلر والأجناس). لأدولف هتلر، منشورات دار بيروت ١٩٥٢م.
- الطابور الخامس لصهيون، لجاك تني ١٩٥٩م.
- الحكومة السرية في بريطانيا، لجون كريج سكوت، دار النصر ١٩٥٧م.
- الصهيونية في روسيا القيصرية، ي.س. يفيسييف و ل. فوستوكوف ترجمة هاشم حمّادي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٦م.
- الوجه الآخر، العلاقات السرية بين النازّية وقيادة الحركة الصهيونية، محمود عباس (أبو مازن)، دار ابن رشد ط٢، عمّان ١٩٨٤م.
- ثمن إسرائيل، ألفريد ليلنتال. ترجمة حبيب حولي وياسر هواري ط٣ كتاب الملايين ١٩٥٤.

ب ـ صحف ودوريات:

- «الثورة» السورية، السبت ٢ ربيع الآخر ١٤٢٢م/٢٢ حزيران ٢٠٠١م. العدد ١١٥١٣. ص ٢ – ٣.
- «الاتحاد» الإماراتية ٢٠٠١/٦/٢٥ عدد ٩٤٨٦.
- لوبوان الفرنسية Lepoint عدد ١٤٨٩ الجمعة ٣٠ مارس ٢٠٠١م.